

الخروج من النفس

للأستاذ عباس محمود العقاد

—❦—

كل ناقد لا بد له من قدرة على الخروج من نفسه بعض
أحيان ، أو من قدرة على تصور الأشياء كما يتصورها مائة إنسان
كما يتصورها فرد واحد في جميع الحالات

وما كان « الخيال » ملكة من أنفس الملكات وأزرها للناقد
الأديب والشاعر والعالم إلا لأنه يتيح للإنسان أن ينظر إلى نفسه
حياتاً كما ينظر إلى غريب ، وأنه ينظر إلى الغريب أحياناً كأنهم
نسخ أخرى منه يحس معها وتحس معه ، ويحس باللحظة عينها
نوارق بين تلك الأحاسيس جميعها ، فينقد ويؤلف ويقسم ويوزع
علم أن الصواب لا ينحصر في سمت واحد ولا حالة واحدة ،
ن الأمر لا يكون خطأ لأنه يخالف ما استصوب ، ولا يكون
بما لأنه يخالف ما استحسن ، ولا يكون بدعاً غريباً لأنه يخالف
تعود ، ولكنها الحقيقة فصلية من فصائل الجان ، تشكل كما
تكون بمختلف الأشكال والنماذج والألوان

وبعض الأمم يتلون بضعف الملكة الناقدة لأسباب كثيرة
فيها أصيل وبعضها عارض يزول

فما ما يؤتى من جانب الفرور عقب النصر الباهر ، وفي أيام
خاء الوافر ؛ ومنها ما يؤتى من جانب الجود والركود وطول العهد
بضارة ، بين جيران من ذوي الخشونة والجلافة ؛ ومنها ما يؤتى
جانب المزلة وقلة المخالطة والهجرة ؛ ومنها ما يؤتى من بلاد
س وضيق العطن وشيوع الجهل والفدامة ؛ ومنها ما يؤتى من
نصب الشديد الذي يؤصله في النفس طول الظلم والاضطهاد مع
ة في الشكينة وقدرة على التحول والتصرف تحول دون الأمة
فناء .

وأحسب أن المصريين من أكثر الأمم سخرية بما استغربوه
بتمودوه ، فلا يكون الخطيب خطيباً ولا الواعظ واعظاً ولا
مثل ممثلاً إلا إذا خاطبهم باللهجة المصرية التي لا تشوبها مسحة

من اللهجات العربية الأخرى ولو كانت ريفية من صميم البلاد
المصرية

وأذكر أن ممثلاً سورياً كبيراً حضر إلى مصر بعد اغتراب سنوات
في أوروبا تلمذ خلالها على أساطين المسرح الحديث وعاد إلى مسرحنا
بنمط جديد في بعض الأدوار يذبه أنداده وسابقيه ، فذهبت
ومني اثنان من الأدباء - وأقول من الأدباء لا من عامة السواد -
وأصنينا إلى الرجل وهو يترق في دوره حتى شارف القمة وألح
النفوس بالتشوف واحتداد الالهفة ، ونظرت إلى جاني فإعني
إلا أحد الصاحيين ، وقد غلب ضحكاً ، وإلا الصاحب الثاني يكاتم
الضحك مكاتمة شديدة ، وكل ذلك لأن الممثل قدم الحروف
وهو بصرخ ويهيج على نحو يقارب الفرنسية من جهة ، والسورية
من جهة أخرى ، فسي الأديبان أن الإنسان قد يتألم سورياً
وفرنسياً وليس من الضروري أن يتألم مصرياً وقاهربياً وإلا
انقلبت الخواالج الأدبية فأصبح الألم مما يضحك والحياج مما يدعو
إلى الفكاهة ، وحسباً أنني لم أظن لاختلاف اللهجة كما فطنا ...
نفرجا يتندران بهذه القصة ويزهيان بالفطنة التي رزقاها وحرمتها ،
والدوق « الدقيق » الذي عداني وما عداها !

وكان عيد الحرية العثمانية فذهبتا جميعاً من الإخوان نشهد
الحفل الحافل في بعض المسارح الشهورة يومذاك ، وكان بين
الخطباء ترك وعرب وسوريون . فما أحسب أن رواية هزلية
في ذلك المسرح أثارت قط بجانة وضحكا وسخرية كالتي أثارتها
« حماسة » الخطباء والشعراء وذكريات الفجائع والظالم في أيام
الاستبداد . وكان أحد الخطباء مبيناً مفوها متدفقاً كأحسن ما
يكون الخطيب في لغة من اللغات ، إلا أنه ارتضخ لهجة غريبة
فبطلت محاسنه واحتجبت مزياه . ولم يكن قصارى الأمر عند
أصحابنا أنه يجمل العبارات المصرية والمخارج القاهرية ، وإنما كان
عندهم جاهلاً بكل شيء يجمل الخطيب خطيباً ويجمل السامعين
يستمعون إليه ! فلما قلت لهم : إني أعد الرجل من أقدر من سمعت
وأوفاهم بياناً ، قام أحدهم بحكيه وردد عباراته ومثل إشاراته وحركانه
فسقطت الحجة كلها وقطعت جبهة قول كل خطيب ! ... وإلا
فإذا بقي من قول القائل الذي يخالف اللهجة القاهرية هذه

المخالفة ، والذي يستطيع القاهري أن يحكيه ويتماجن عليه ؟؟ لا يبق
بالبداهة شيء !

ويؤمن العامة إيماناً عجيباً بملزمة الأشياء لصورها وأسمائها
وعاداتها التي ألفوها حتى لا يجوز أن تقع التفرقة بينها بنحو من
الأنحاء

سألت أحدهم مرة : ما اسمك ؟ فأخني اسمه الصحيح وقال
لي إن اسمه « علي » وهو في الحقيقة يسمى إدريس ، وكأنه استحسن
ذاك في هذه الأكذوبة وخش أني لا أفرق بين الكذب والصدق
إذ كان الرجل الذي يسمى « إدريس » تلمذه هذه التسمية لزوماً
لا فكل من لا يمكن أن يسمى علياً بحال من الأحوال . فلما
دعوت مرة أو مرتين باسم « علي » وصدقت ما قال تدرج إلى غشي
ومخادعتي في غير ذلك موقتاً أنني سأجهل الحق كما جهلته في
استبانة اسمه الصحيح . وأين ... نعم أين بالله علي من إدريس ؟!
هذا مثل هابط جد المبطوط في ملازمة الأشياء لمظاهرها
وأسمائها بحيث لا تقبل الاختلاف ولا التصور على مثال آخر ،
ولكن الذين يهبطون هذا المبطوط كثيرون وإن لم يظهروا هذا
الظهور . وما من ناقد ينكر كلاماً لأنه يخالف أسلوباً من الأساليب
إلا وهو قريب إلى طبقة ذلك القدم الذي يستجهل كل من يتخيل
أن أسماء تطلق على الناس غير اسم إدريس !

كنا نناقش أستاذاً مدرساً في مسألة اجتماعية فاحتج علينا
برأى فيها لبعض الأئمة السابقين ، قلنا : وهل هذا الامام حجة
فيا نحن فيه ؟

قال : سبحان الله ! إنا نقضى العمر نتعلم اللغة العربية ولا
نحذقها كما نحذقها ذلك الامام وهو طفل لم يتعلمها على معلم .
أفيكون هذا حظه من الفهم ثم يجهل كلاماً نحن ندره ؟

قلت : أو لم يخطر لك أن ذلك الامام يقضى العمر يتكلم اللغة
العامية التي نحذقها نحن ولا يبلغ من حذقها ما بلغناه ؟ أو لم يخطر
لك أن الطفل المولود بين الفرنسيين أو الانجليز أو الألمان يسبق
ذلك الامام إلى معرفة الفرنسية أو الانجليزية أو الألمانية ؟
أنتظن أن العربي وحده يحسن اللغة التي يتكلمها ؟ وإذا أحسنها
أنتظن أنه يحسن كل شيء على هذا النوال بغير كتب وبغير
معلمين ؟

فلاح عليه وأنا أسأله السؤال أنه لم يكاف بداهته قط أن
تصور للأمور أوضاعاً غير الوضع المروض عليه . وقد تنساق
أمة كاملة إلى خطأ شبيه بخطئه كما انساق العرب إلى تسمية الناس
جميعاً « بالأعاجم » لأنهم لا يفهمون ما يقولون

ولست أرى ميزاناً للنقد والدوق أصوب وأحكم من سؤال
المرء عن عشرة شعراء أو فلاسفة يقرأ لهم ويعجب بهم ويشهد
لهم بالشعر والفلسفة . فكما اختلف هؤلاء وتباعدت بينهم أوجه
الشبه وأسباب الاختيار والترجيح كان ذلك دليلاً على سعة القرينة
وقدرتها على الاستحسان لجملة أسباب متفرقات لا لسبب واحد
متكرر محدود . وكلما تماثل هؤلاء وتقاربوا كان ذلك دليلاً على
ضعف النقد وعجز اللسنة الموكلة بالاستحسان والانتقاء

ومن هنا نعتقد أن البارودي خطأ بالنقد العربي خطوات كما
خطأ بالشعر في معناه وأسلوبه . فانتقل بنا من المدرسة التي كانت
تقصر الشعر على الجاهليين والمخضرمين إلى مدرسة تعرف الفضل
للعباسيين والمحدثين ، وانتقل بنا مع ذلك من جماعة الزبيدي الواحد
والنمط الواحد إلى جماعة الكثرين بالأزياء والأنماط . فقد كان الناقد
قبله يستحسن البحري ثم لا شيء بعده ولا شيء غيره ، فجاء
البارودي على آثار من سبقوه يجمع بين المعري والبحري وبين
ابن الرومي وابن المعتز في ديوان واحد

ولا تزال في مصر بقية من المحدودين المطوين على أنفسهم
يلج بهم الغرور ويشدد بهم الوهم على مقدار ما يضيّق بهم المجال
وينحسر بهم الدوق والشعور . فهم على يقين ما بعده يقين أن « الدوق »
لم يخرج من مصر ، وأن الدوق هو ما اصطنعوه من الفكاهة الفنة
أو الرقة المحفوظة المدبرة التشابهية العبارات والتحيات والمصطلحات ،
أو الجناسات الكلامية والفكرية التي لا تطلع على الذهن بلعة من
نور ، ولا تترك فيه فضلة من فهم ، ولا تبت في حركة من حياة .
وتسألهم : كم عدد الشعراء الفحول في عشرة آلاف سنة بين القوم
الذين رزقوا الدوق كله والاحساس كله ولم يتركوا على زعمهم
بقية منهما إلا كما يترك النور في الاناء المهجور ؟؟ وكم واحداً
من « أبناء البلد » الذين لا ذوق إلا ذوقهم ، ولا إحساس إلا

المحاضرات التاريخية الكبرى

١- الحركة النهلستية ومصرع القيصر اسكندر الثاني

صفحة رائعة من صحف الثورة على الطغيان

للأستاذ محمد عبد الله عنان



كانت الثورة البلشفية نتيجة محزنة للمعركة التحريرية الرائعة التي اضطرت مدى ستين عاماً بين القيصرية وبين الحركة الثورية الروسية . ولم يثل عرش القيصرية ويسحق طغيان القيصرية وتمحى نظم الاقطاع وامتيازات النبلاء إلا ليقوم مكانها طغيان جديد أشد إمعاناً في الارهاب والسفك وتل الحقوق والحريات العامة . ومن ذا الذي يستطيع أن يقول إن الشعب الروسى يتمتع اليوم في ظل النظم البلشفية بلحمة من الحرية التي كان ينشدها في أيام القيصرية والتي اعتقد أنه ظفر بها كاملة في ثورة مارس سنة ١٩١٧ الاشتراكية ثم في ثورة أكتوبر البلشفية . كانت روسيا منذ منتصف القرن التاسع عشر مسرح نضال عنيف بين طغيان القيصرية وبين العقيلة الروسية الجديدة الطموح إلى الإصلاح والتحرير ؛ وكانت روسيا الجديدة تنشد الإصلاح السلمى بادية . بدءاً وتحاول عن طريق الإصلاحات الدستورية والاجتماعية تحطيم الأسناد المتهللة التي تطوق القيصرية بها عنق الشعب الروسى ؛ وكان رسل روسيا الجديدة يومئذ جبهة من الشباب المستنير الذى حفزته مؤثرات الثقافة الحرة إلى التطلع إلى آفاق جديدة . كان هؤلاء هم طلائع «النهلم» أو الحركة النهلستية كما سماها ترجنيف ، وكانت هذه الدعوة الإصلاحية التوثية دعوة مثل ومبادئ يذكها طائفة من الكتاب الأحرار بأقلامهم الملتبة ؛ وكان أخص ما يميز الدعوة الحديثة على قول ستينياك مؤرخ الثورة الروسية « هو إنكار كل ما يفرض على الفرد إنكاراً مطلقاً تمززه الحرية الفردية . وقد كانت النهلستية ثورة قوية مضطربة لا على الطغيان السياسى ولكن على الطغيان الجبوى الذى يرهق حياة الفرد الخاصة » . على أن هذه الحركة الإصلاحية السلمية لم تلبث إزاء

سأهم ، ولا فكاكة إلا فكاهم ، ولا فطنة إلا فطنهم ، سعد في مراتب الفن والشعر إلى مواطن أقدام المحرومين ، الذين لا يشعرون ولا يتذوقون ، ولا يستمرثون لافة ولا يستلحون للماني والنكات ؟؟ وإذا كان ما استقروا ، هو غاية الحس والدوق ، وحمادى الابداع والاحسان ، وقصارى افة والجمال ، فما بهم لم ينجبوا رجلاً واحداً خلافاً في عالم الشعر الكتابة أو التصوير أو الموسيقى ، وقد أنجبت الأمم المئات لوف ؟

سيمضى زمن نرجو ألا يطول قبل أن يفقه أدعياء الدوق أنهم صفر من الدوق ، وأن الله لم يخلق على الأرض طائفة ظ منهم حساً ، وأثقل منهم روحاً ، وأفرغ منهم لباً ، وأعزل م داء على العلاج

وسيمضى زمن نرجو ألا يطول قبل أن يفقه أدعياء النقد عندنا الدوق الذى يستحسن حسناً جميل ، وأجل منه الدوق الذى يحسن الحسنيين ، وأجل منهما الدوق الذى يستحسن الشينين ما تناقض في الحسن كأنهما ضدان

وسيمضى زمن نرجو ألا يطول قبل أن يشيع بيننا أن كل قد يشتعي طعاماً لذيذاً ولا يمنع ذلك أن تشمل الأطعمة الفلون لذيذ غيره ، وأنه إذا جاز هذا في الآكال التي تمد بهر فأخلق أن يجوز فيما ليس له آخر ، وهو أظعمة الألباب ناف الماني وألوان الشعور

ونرجو ألا يطول الزمن قبل أن يتعلم الهازلون الماجنون كيف جون من نفوسهم ليمرفوها ويعرفوا سواها ، كما يخرج السائح وطنه ليعرف وطنه ، ويخرج القاري من زمنه ليعرف زمنه ، يد المصور من صورته ليراها حق الرؤية ويلغ بها جهده من رية والتجويد

وتلك قلة صعبة على من يحتاج إليها . ففي عالم المادة أكثر انطلاقا إلى الخروج المحبوسون في المكان المغلق المحدود . عالم الفكر والروح فالمحبوسون في المكان المغلق المحدود هم الناس انطلاقا إلى الخروج وأكثرهم قناعة بما هم فيه .

عباس محمود العقاد